مناقشات

جيل الصمت ... وقضية الشرف !

بقلم غالي شكري

كان (*) الطريق معقد امام جيل الرواد في ادبنا الحديث . فقد أحس هؤلاء – مع بداية القرن العشرين – بان خريطة العالم تتغير من حولهم .. تتغير تضاريسها المادية والفكرية على السواء . لذلك كانت مهمتهم التاريخية ثقيلة ، وهم يتحسسون الارض التي يقفون عليها : هل صحيح ان التراث العربي يكفي حياتنا الجديدة بعناصر النمو والازدهار ؟ ماذا يمكن ان نفيد من ثقافة الغرب ؟.. لقد صرخت ظروف الحرب العالمية الاولى وثورة مصر القومية عام ١٩١٩ في اذانهم، بان مجتمعنا ينشد حياة جديدة لها مثلها الخاصة وموازينها ، وانه يتحتم علينا ان نولي وجوهنا شطر المستقبل بنفس القدر الذي شدت به الى الماضي . وراح العقاد وطه حسين وسلامه موسى والزيات وهيكل ، يغترفون من حضارة العصر زادا جديدا يغاير ما توارثته معدة الاجيال من الوان الاطعمة القديمة .

فما ان اشتد عود هذا الاتجاه ، حتى انبرت له من اوكار « الماضي » ذئاب مرعبة !! اتهموا هذا بالكفر وذاك بالزندقة والاخر بالالحاد . ثم تراجع من تراجع وتقدم من تقدم وصمت من صمت ، وظلت اثار المعركة في وجدان ذلك الجيل الرائد ، تطفو على السطح تارة ، فيذكر العقاد زميله صادق الرافعي بأنه « أصم » لا يسمع ، وبالتالي فهو لا يستحق الرد . ويتهم المازني زميله عبد الرحمن شكري بالجنون ، فهو اذن غير جدير بالمناقشة .. وهكذا .. غير ان هذه الفقاقيع سرعان ما كانت تذوب ، ليحل مكانها الانتاج والعمل والجهد والمثابرة . فاستطاع روادنا – رغم كل شيء – ان يصنعوا شيئا تتلمذنا عليه بالرفض او القبول .

ثم افبل جيل جديد استهل شبابه الادبي قبيل الحرب العالمية الثانية . وكان مجتمعنا يجتاز حالة استقرار نسبي رغم الظروف الدولية السيئة والموقف الداخلي المتدهور . ذلك ان العلوم العصرية بدأت تغزو وعي ادبائنا ومفكرينا ، ومن ثم ازدادت كتاباتهم نضجا وعمقا بعد بهم عن مهاترات الجيل السابق ، فتميزت اعمالهم بروح جادة ، وان لم تبلغ درجة عالية من التكامل (١)

وكان هناك جيل اخر ينتظر دورا قاسيا بعد الحرب لفترة قصيرة (خمس سنوات تقريبا) . فالطور التاريخي الجديد من اطوار نمو مجتمعنا الذي كان جنينا سنة ١٩١٩ وصبيا عام ١٩٣٥ ، اصبح شابا ثائرا يتمرد على اساليب الحياة الميتة في صراحة ووضوح ودون خشية او حذر .. على نقيض المراحل السابقة التي اتسمت بالخجل والحياء والتردد . ولم يأبه الجيل المتوثب بالاشواك والصخور التي بدأت تمزق حياته ، وراحت دماؤه تكتب صفحة جديدة في تاريخ ادبنا الحديث .

***

الصفحة الجديدة يمكن ان تقرأ سطورها حرفا حرفا من خلال الانتاج الادبي في العشر السنوات الاخيرة . ولن نعرض لهذا الانتاج بطبيعة الحال – فليس هذا هدفنا – ولكنا سنستعرض سماته الرئيسية والظروف الموضوعية المحيطة بالمرحلة كلها .

والملاحظة الاولى التي تواجهنا هي ان اغلب ابناء الجيل الجديد من الادباء ينتمون الى فئات الطبقة المتوسطة في الريف والمدينة . هذه الطبقة المأساوية في طبيعة وضعها الاجتماعي ، اذ هي بمثابة الميزان الحساس لكافة التغيرات المعاصرة في العالم بصفة عامة ، ومنطقة البلدان المتخلفة بصفة خاصة ، وفي مجتمعنا نحن بصفة الخص فالتمزقات اللاهبة في تكوينها الاقتصادي القلق ، وكيانها الفكري المبعثر .. تنعكس جميعها بشكل حاد على فئة ابنائها من المثقفين . منهم من « يحس » بالازمة وينحصر اهتمامه الثقافي في دائرة هذا الاحساس فقط . فشممنا رائحة القلق تفوح بقوة من اعمالهم .. ولكنه القلق البدائي الساذج الذي يفتقد دلالة خاصة ومعنى عميقا . ومنهم من « ادرك » الاسباب الموضوعية للازمة ، واكتفى بهذا الاكتشاف ، واقتصر انتاجه على تأكيد هذه العبقرية في اذهان الناس . والقلة القليلة احست بالازمة وادركت ظروفها الموضوعية ، ولم تتم ! وانما استغرقتها خبرات الاخرين وتجاربهم فاخذت تستقرىء بوعي ما تمتلىء به هذه الخبرات والتجارب من امدادات وعناصر حية تلائم حياتنا الجديدة .

هذا هو التكوين الذاتي للجيل . اما تكوينه الموضوعي فقد كان – وما يزال – مثيرا للشفقة والرثاء . فلقد تمكنت القطاعات الاحتكارية في بلاد كثيرة من السيطرة على اجهزة الحياة الاجتماعية . واصبحت لمنابر الرأي اسوار دونها سور الصين العظيم . حتى ان الاديب لم يعد يتنفس كلماته الا في الندوات والمقاهي حيث يختلط صوت النرد بأبخرة الشاي بآهات المجاملة .. لتعزف جميعها لحنا معذبا يستقطر الدم من عقول جيل كامل . وليس الاحتكار سورا حول ادوات النشر وحدها ، بل حول نوعية النشر على وجه الخصوص . فاذا لطم الاديب خده الايمن لان انتاجه لا يجد مكانا ، فانه يلطم خده الايسر – عادة – عندما يعثر على المكان !! ذلك انه مكان مظلم ، اسود ، بلا حرية !! فاذا حمل كلماته الى مكان مضيء ، يبعد كثيرا عن موطىء قدميه ، أحس بالغربة والضياع اكثر من ذي قبل (١) وتصل به الازمة الى محطة الصمت في اغلب الاحيان .

ولا تنتهي حرية الاديب الجديد عند حدود النشر فحسب . وانما

(*) تبادلت رسالتين هذا الشهر مع الدكتور سهيل ادريس ، اتفق ان يكون موضوعهما قريبا من حديث الاستاذ محيي الدين محمد في عدد سابق حول معركة الشرف التي ينبغي لجيلنا ان يخوضها . وهذا المقال مجرد محاولة لالقاء الضوء على المشكلة .

(١) بلغت هذه الروح الجادة ذروتها عند الكاتب القصصي عادل كامل (صاحب مليم الاكبر وملك من شعاع) الذي لم يمسح له لقمة الخبز مكانا في ميدان الادب ، فلم يرض ان ينافق او يخدع ، وآثر الانزواء بلا ضجيج ولا صخب .. ولا وداع !!

(٢) لنضرب مثلا : مجلة « الاداب » تضيء بحرية الفكر دائما ، وتحظى باحترام الفئات المثقفة من القراء العرب . ومع ذلك فالاديب القاهري يتأزم كثيرا حين يجد كلماته فيها لا تصل الى طنطا والفيوم واسيوط ... الخ .. ولا يعوضه ابدا ان كثيرين يقرأونه في بلاد اخرى .

تتجاوزه الى مدى ابعد ، الى حرية امعائه في الانكماش والالتحام ، كلما امتصت قواها امعاء اخرى في وجدان الاديب وعقله .. فالصراع بين الاثنين يقرره اتجاه القرش الى جيب صاحب المكتبة او صاحب المطعم ! ولم يعد في مقدور اديب اليوم ان يطلب حقه من الناشر ، لانه يريد لديوانه او مجموعة قصصه ان ترى النور فقط . حتى اذا قرصه الجوع فضل ان يزدرد ريقه ويتمتم « من الحسن ان اكون خالدا بعد موتي .. ولكن من الاحسن الا اموت » .. ويسقط القلم من يده ، لتمسك بالرغيف الى ان تقدمه لديدان القبر .

***

الحرية والخبز (بغير انفصال) هما الباب الكبير الذي يدخل منه الادباء الى وادي الصمت .. ولا ثالث لهما رغم ادعاءات الاستاذين : محيي الدين صبحي (٣) ومجاهد عبد المنعم .

اما الاول ، فمشكلته انه يعمل مدرسا .. (وانا اعرف التدريس جيدا فقد مارسته اربع سنوات) .. واعجب كثيرا حين يعتقد واحد منا في اول الطريق ، انه لن يصبح عظيما الا اذا تفرغ نهائيا للادب منذ مولده . والحق ان التفرغ النهائي للادب أسطورة .. ولو راجعنا بسرعة سجل العظماء من امثال برناردشو وولز وسارتر وموبسان وجوركي .. الخ ، هالنا كثيرا ان حياتهم بدأت ـ واستمرت بالنسبة لبعضهم ـ بالوان العذاب المر من ناحية انهم كانوا يشغلون اعمالا بعيدة تماما عن الادب . حتى هؤلاء الذين عملوا بالصحافة كانوا يشغلون فيها اعمالا بعيدة عن الادب . ومع ذلك تفاعلت حياتهم العامة مع حياتهم الادبية ، واخصبت انتاجهم بثمرات عظيمة رائعة .

وفي تاريخنا نحن رجل متواضع يعمل بين الملفات والدوسيهات والمكاتب الادارية منذ تخطى ابواب الجامعة حتى الان .. ويعتبر انتاجه الروائي قمة الفن العربي الحديث .. انه نجيب محفوظ..!

ولن استطرد في ضرب الامثلة ، وانما سأناقش القضية في ذاتها : احقا يحول العمل دون انتاج الفنان ؟ ان اقل عدد من الساعات يعيشها الاديب يوميا مع ثقافة ممنهجة ، لا شك انها حصيلة جيدة لو انكب عليها بروح المسئولية . ولا شك ايضا ان العمل سيزوده برصيد ضخم من التجارب الانسانية التي هي خامته الوحيدة وزاده الذي لا ينفد . لو انك تعمل عشر ساعات في اليوم ، فان ست ساعات على الاقل في انتظارك ، يمكنك خلالها غزو العالم !! فاذا لم يمنحك المجتمع هذه الساعات القليلة ، فان اي وقت في حوزتك ، سيتطور بك وتتطور به مع الصبر والدأب والمثابرة ... بدلا من استنفاد هذا الوقت في الصراخ والضجيج والوداع .. والا فدلني على ذلك المجتمع الذي يهب شابا في مثل سنك هذه الرغائب والامنيات الخيالية ، قبلما يثبت فعلا انه على شيء ؟

لقد عثرت على « الخبز » يا سيدي . حسنا . اذا لم تصطدم كلماتك باية عوائق تحول دون حريتك في الكلام .. اي اذا عثرت على المكان الذي يقبلك كما انت بلا زيف او تشويه ، ويصل بكلماته الصادقة الى الناس جميعا .. فانك انسان سعيد .

***

اما الاستاذ مجاهد عبد المنعم ، فله شأن اخر .. انه على النقيض من زميله المرهق بالعمل ، فهو يشكو « الفراغ » ! (ولا يؤرقه بعد مضي سبعة اشهر من عدم الكتابة الا قراء الاداب الاعزاء الذين لا ينبغي ان يهجرهم دون ان يرفرف لهم بمنديل وداع ..) ويبدو لك مجاهد ـ لاول وهلة ـ شابا مخلصا للعلم وفيا للثقافة امينا على قداسة المعرفة ...فهو يريد ان ينتهي من قراءة ثلاثة الاف كتاب في عشر سنوات . واود ان اعترف بحقيقة هامة جدا ، وهي ان الاستاذ مجاهد شاب يستحق لقبا خاصا يميزه عن فئة المثقفين العاديين ، لانه يقرأ فعلا بمعدل كتاب يوميا . (٤) فاذا تساءلنا : ما هي الحصيلة الحقيقية لهذا المنهج في القراءة ، لاكتشفنا نموذجا جيدا لهذه الحصيلة فيما انتجه مجاهد مؤخرا ، وهو مقال « الفلسفة ـ وموقفها من البشرية » . لقد حاول ـ في ثلاث صفحات ونصف ـ ان يصنع شيئا غريبا .. ان يؤرخ للفلسفة !! بل وان يكون التاريخ من وجهة نظر تقدمية !! كيف تم ذلك ؟ لقد اكتفى بسرد النقاط الاساسية جدا (٥) ثم راح يقرر بعد كل نقطة « وهذه فلسفة انسانية » او « هذه فلسفة ضد الانسان » ... وهذه هي التقدمية كما يفهمها !! ان المقال لم يعط القارىء شيئا بالطبع .. ووقع الكاتب في اخطاء كثيرة مذهلة ، كنتيجة طبيعية للقراءة السريعة غير المتمثلة (٦) . وهكذا جاء مقاله الذي ودع فيه الكتابة .. لم يحاول ان يقدم لنا دراسة جادة للظواهر التي عرض لها .. لم يرهق نفسه بدراسة تاريخنا ومجتمعنا ، وان يقدم لنا نتائج هذه الدراسة من خلال الظواهر السيئة التي ذكرها .. كل ما نجح فيه ان اطلق جملة بصقات سريعة اعطتنا معنى سيئا للثقافة الموسوعية التي ينشدها. كانما اراد ان (ينظف) الحقل الادبي بمكنسة قذرة .

ولا اريد ان اكرر للاستاذ مجاهد الاسماء العملاقة التي كافحت في الحياة والفن على السواء .. لانه اخبرني ذات مرة انه يمتلك مقياسا خاصا لثقافة الفرد .. فلا شك ان عباقرة الفكر الانساني بهذا المقياس يصبحون اصفارا .. لقد كانوا يقرأون ويفكرون ويتمرسون

---

(٣) كان الاستاذ محي قد ودع الادب ، ثم عاد اليه مرة اخرى ... غير ان هذه العودة لا تعنيني ـ رغم احترامي لها ولصاحبها ـ وانما تعنيني هنا ظاهرة « الوداع » هذه .

(٤) متوسط الكتاب في لغته الاصلية حوالي ٣٠٠ صفحة . ومجاهد يؤكد لاصدقائه انه لن يقرأ حرفا بالعربية خلال العشر سنوات القادمة.

(٥) يمكنك ان تضرب (جدا) هذه في مليون مرة على الاقل !

(٦) قال ـ مثلا ـ ان تيار (سقراط ، افلاطون ، ارسطو) قد أخر المجتمع البشري الفين من السنين .. فأثبت الكاتب انه لا يعرف عن قوانين التقدم شيئا .

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب

على التعبير في آن واحد . ولم يتبادر الى اذهانهم ابدا ان يضعوا ايديهم في جيوبهم ويدخنوا البايب .. ويغازلوا بعيونهم سطور الكتب. لم يخطر على بالهم ذلك ، لانهم لم يسمعوا للاسف ـ بمقياس مجاهد للثقافة .

الغريب فعلا ، ان الاستاذين محيي ، ومجاهد .. لن يكتب اسماهما في سجل الصامتين . ففي ثلاثة اشهر متوالية قرأت لمجاهد ـ مثلا ـ اكثر من اعلان عن صمته القادم !! لم هذا كله ؟ لقد سكت عبد الرحمن شكري وخسر الادب بسكوته ، وصمت عادل كامل وخسر الفن بصمته ، ولكنهما لم ينشرا اية اعلانات رثائية عن فائدة السكوت والصمت .

***

واخيرا نلتقي مع الاستاذ محيي الدين محمد في حديثه عن قضية الشرف . ان هذا الكاتب الصادق المخلص ، كثيرا ما يجنح بعيدا عن الصواب ، ربما لطبيعة منهجه في التفكير واسلوبه في التعبير (٧) فهو في هذه القضية مثلا يشير الى الصحافة كمهنة تعوق الاديب عن اداء رسالته الفكرية . ولا اريد للمرة الثالثة ان اكرر اسماء العظام الذين لم تعقهم الصحافة عن اداء هذه الرسالة ، لان محيي محمد يستهدف باشارته ، الذين يعملون بالصحافة ويهجرون الادب . او هم يثرثرون في ميدان الصحافة ويصمتون في ساحة الادب . لذلك لم يوفق الشاعر صلاح عبد الصبور حين اجاب في « روز اليوسف » بأن تساءل « لماذا لانعتبر المقال الصحفي فنا جديدا » لان محيي يعرف ان هناك شيئا بهذا الاسم ، ويبحث في نفس الوقت عن شيء اخر : عن القصيدة الرائعة ، والبحث النقدي الجاد ، والقصة الفنية بالعظمة ! لذلك كانت اجابة صلاح ـ في رأيي ـ غير مقنعة ، ان لم تكن في باطنها تؤيد وجهة النظر المعارضة . على انني اهمس في اذن محيي بهاتين الواقعتين : اولاهما حدثت بين اديب شاب ورئيس تحرير مجلة قاهرية ، قال له الاديب الشاب « لماذا لاتفتح المجلة صفحاتها لادباء جيلنا ، انكم تعطون اجورا لنشر المواد ، وهذا جميل ، ولكن ماهو سبب تجاهلكم لهذا الجيل ، لماذا تركتم المجلة تخاطب القرون الوسطى ؟ » واجاب رئيس التحرير في ثقة « لم يقل احد ان المجلة مغلقة دونكم .. انها مفتوحة الصدر لكل اديب عربي ، مادام قلمه يتفق مع الخط الفكري العام للمجلة ، اما مسألة القرون الوسطى فنتركها للزمن .. اننا نتطور باستمرار ، ونرحب بالنقد والانتاج المثمر » . ورد الاديب الشاب بان

مثال اخر .. القصاص محمد سالم له مجموعة قصصية نائمة في وزارة الثقافة منذ عامين . لماذا ؟ لان الخط الفكري العام لايسمح باللغة العامية ان تكون حوارا في قصة مصرية . هكذا اجاب المسؤول ، وجرؤ على ان يطلب من القصاص ان يحول الحوار الى اللغة العربية (نسي ان ينصحه بكتابة المجموعة من جديد) رغم ان تقريرين كتبها الاستاذان : عباس خضر ويحيى حقي ، يشيدان بالكاتب وقصصه .. فما معنى ذلك؟

معناه ان يقدم الاديب احتجاجا لاشعوريا على هذا الوضع بان ينغمس في الكتابات الصحفية .. ومعناه ان يقرر مجموعة من الادباء الشبان اصدار مجلة تتوقف عن الصدور بعد عددين ، جميعها احتجاجات لا واعية : ازدواجية الذي يبشر بالتقدمية ويهدي اعماله «الثورية» الى مد يده قائلا « اذن خذوا هذا الانتاج ، وانشروه ان اتفق مع الخط الفكري العام للمجلة » . وتحمس رئيس التحرير وتناول المقال ليضعه (بحماس ايضا) على احد ارفف دولاب كبير شاهده الاديب عندما ذهب يسأل عن مقاله بعد ستة اشهر !!

عبد الحليم حافظ وانيس منصور !! وانفصالية الفرد الذي يهرب من الارتباط بمجتمعه ومشكلاته ، ويتسلق قنطرة عالية من الثقافة ليصل الشاطىء آمنا بسلام !! تشنجات الذي يقضي ثماني ساعات في المقهى يلعب النرد او يواظب على حضور سبع ندوات في الاسبوع !! كلهم احتجاجات ساذجة على واقعهم السيء .. ولن تجد احدهم الا وقد فقد احدى اثنتين : الخبز او الحرية ، او كليهما معا .

لاتحاول ان تقدم لهم عظات اخلاقية رنانة عن الشرف والسمو والانسانية ، لانهم يحفظون هذه القائمة جيدا ! انهم ليسوا صامتين كما نتوهم .. لقد تخدرت حواسهم فقط لذلك فهم يهذون حين يسخرون من هذا او ذاك .. انهم في حاجة الى نقطة نوشادر قوية ، يفيقون بها على حقيقة حياتهم .. في حاجة الى قطرة وعي يستيقظون بواسطتها على دلالة وجودهم .

وهذا الوعي لن يتأتى ابدا من فوق منبر اخلاقي .. ولكنه ينفذ الى اعماقنا بالدراسات الجادة المستنيرة المعمقة لحياتنا وواقعنا .

حينئذ .. وحينئذ فحسب .. سوف ندرك ان العمت هو هذا الوادي الرهيب الذي صنع بابه من ضلفتين : الخبز والحرية ..

القاهرة — غالي شكري

٧ تذكرت الان ماقدم به احدى مقالاته لتفسير هذا المنهج بان اية وسيلة لعبور النهر جيدة مادامت تصل به الى الشاطىء . وقد يصدق هذا على منهج التعبير وأسلوب المعالجة ، اما منهج التفكير فهو الذي يقرر : أي شاطىء على وجه التحديد سأصل اليه ؟